الفصل الرابع

المساواة الإنسانية في الإسلام

في فترة من فترات التضارب الخلقي، وعلى حين غرة من الملل والنحل التائهة في بيداء المبادئ القائمة على غير أساس، نظرت السماء إلى الأرض فمنحت الإنسانية وثبة لم يعرف التاريخ لها نظيرًا. ففي الوقت الذي كان بعض الناس يعتقدون أنهم من نسل الآلهة، والبعض يؤمن أن الدم الذي يجري في عروقه متخذ أصله ومنبعه من الدم الأزرق الملوكي النبيل كما كانت هناك بعض الأديان تفرق الشعوب إلى طبقات خلق بعضها من رأس الإله؛ وهي الطبقات ذات المجد الإلهي المستحقة لحياة العزة والسيادة، وبعضها خلق من قدمي الإله وتلك طبقة المنبوذين.

وفي الوقت الذي كانت تموج فيه شبه الجزيرة العربية بخضم من الفروق الشاسعة في الحسب، والنسب، والرزق. حيث كان هناك الأعز، والأذل، والشريف، والحقير، والغني، والفقير، والسيد، والعبد، والعظيم، والرذيل، الكل يعبد الوثن ويخضع للصنم، إلا قلة كتابية تؤمن بالله، ولكن إيمانها كان مشوهًا مشوبًا بالشرك، والتثليث، وعبادة المال. فكان لتلك الملل والنحل كهنة وأتباع لا حول ولا طول لهم.

في هذه الفترة وفي ذلك الوقت بعث الله محمدًا عليه الصلاة والسلام بالإسلام للسادة والعبيد، للعظيم والحقير، للغني والفقير، للناس كافة. جاء

محمد عليه الصلاة والسلام ليقرر أهم مبدأ في الحياة طالما حرمت منه الإنسانية زماناً طويلاً، فجاء الإسلام يقرر مبدأ المساواة باللفظ، والنص، والتطبيق العملي. جاء ليقر وحدة الجنس البشري في المنشأ والمصير، في المحيا والممات، في الحقوق والواجبات أمام القانون وأمام الله في الدنيا والآخرة. فكان مجيئه وبعثه منحة الله إلى عباده، جاء الإسلام ليقرر أن الإله لم ينسل أحدًا، ولم يكن له نسل، ولم يكن هناك أناس من سلالة الإله.

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ ولَمْ يُولَدْ ولَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ) سورة الإخلاص.

(ومَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ ولَدًا إن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ والأَرْضِ إلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وعَدَّهُمْ عَدًا وكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَرْدًا) سورة مريم الآيات ٩٢-٩٥.

جاء الإسلام ليقرر أنه ليس هناك من هو بدم أزرق، أو من دم أبيض، أو من دم أخضر، وليس هناك من خلق من رأس الإله، وليس هناك آخر خلق من قدميه، فقد جاء يقرر وحدة الخلق من أصل واحد، ومعدن واحد، لا فرق بين الخليقة.

(ولَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ ثُمَّ

إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ) سورة المؤمنون الآيات ١٢-١٦.

(واللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ومَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى ولاَ تَضَعُ إلاَّ بِعِلْمِهِ ومَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ ولاَ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إلاَّ فِي كِتَابٍ إنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) سورة فاطر آية ١١.

(أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ) سورة المرسلات الآيات ١٩-٢٢.

(فَلْيَنظُرِ الإنسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ والتَّرَائِبِ إنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ) سورة الطارق الآيات ٥-٨.

جاء الإسلام مبعوثاً به نبي الله محمد ﷺ ليقرر وحدة المنشأ، وأنه لا تفاضل بين الناس إلا بقدر ما يقدمونه من برهان على الإيمان بين يدي الواحد القهار:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وأُنثَى وجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) سورة الحجرات آية ١٣.

وإن السنة أحد ركني الإسلام اللذين ما إن تمسك بهما المسلمون فلن يضلوا أبدًا، قد أكدت ما أكده القرآن الكريم من المساواة في الإنسانية المشتركة. فقد وقف رسول الله ﷺ خطيبًا بين المسلمين في خطبة

الوداع وقال: (يا أيها الناس) إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أبيض، ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى. ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد، ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب).

ولم يكن النبي ﷺ إلا معلمًا يلقن المسلمين مما لقنه الله، فالقرآن ينزل على النبي توجيها للمؤمنين في شخص الرسول صلوات الله عليه وسلامه، فتنزل الآيات البينات يلقنها النبي للفقراء والأغنياء، والعبيد مع السادة؛ بل يؤمر صلوات الله عليه أن يكون مع الذين يؤمنون بربهم ويدعونه بالغداة والعشي، وألا يشغل باله بالذين ختم الله على قلوبهم، وسمعهم، وأبصارهم مهما كانت منزلتهم:

(واصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ والْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وجْهَهُ ولا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا ولا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا واتَّبَعَ هَوَاهُ وكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) سورة الكهف آية ٢٨.

ولقد كان الله سبحانه وتعالى يعاتب نبيه عتابًا شديدًا يكاد يبلغ حد التأنيب، إذا ما ساورته ساعة حرص بشري، طمعًا في هداية أحد العظماء من قريش، مثل ما حدث مع الأعمى الفقير (ابن أم مكتوم) ومع الوليد بن المغيرة، وكان سيدًا في قومه. حيث أن النبي ﷺ كان مشغولاً بهداية الوليد، وجاءه ابن أم مكتوم يطلب شيئًا من القرآن، والنبي مشغول عنه،

فألح ابن أم مكتوم على النبي، فتضايق النبي وعبس في وجهه، فنزل جبريل على النبي بعتاب الله عز وجل (عَبَسَ وتَولّى أَن جَاءَهُ الأَعْمَى ومَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى ومَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى وأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَى وهُوَ يَخْشَى فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ) سورة عبس الآيات من ١-١١.

وقد كان النبي ﷺ حريصًا كل الحرص على تطبيق الإسلام نصًا وروحًا لأنه كان يقول دائمًا لأصحابه رضوان الله عليهم: (رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره). بل كان يطبق ذلك على نفسه، حيث قال لأصحابه (لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، فأنما أنا عبد، قولوا عبد الله ورسوله). وقد خرج يومًا فقام الجالسون تبجيلاً واحترامًا له، فقال ﷺ موجهًا القول إليهم: (من سره أن يتمثل له الرجال قيامًا فليتبوأ مقعده من النار).

وأن حادثة أبي ذر الغفاري، والعبد الزنجي لأكبر مثل على ما رسمه الإسلام من إلغاء الفروق والطبقات ومساواته بين الناس، فقد قام نقاش بين أبي ذر الغفاري وعبده الزنجي، وفي زحمة من النقاش قال أبو ذر للزنجي (يا ابن السوداء)، فغضب النبي غضبًا شديداً وقال ﷺ والألم مرتسم على وجهه: (طف الصاع، طف الصاع، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى، أو بعمل صالح)، فوضع أبو ذر خده على الأرض وقال للزنجي: (قم فطأ خدي)، وفي رواية أخرى: (قم فطأ خد ابن البيضاء).

وما كان من الله ورسوله من أوامر طبقها الخلفاء الراشدون تطبيقًا فعليًا فترجموا النصوص إلى أعمال. وهاك عمر يقول: (يا أيها الناس إنه والله ما فيكم أحد أقوى عندي من الضعيف حتى آخذ الحق له، ولا أضعف عندى من القوي حتى آخذ الحق منه).

ولقد كان عمر ﷺ يوصي الولاة بالمساواة بين الناس، والواجبات، والحقوق. ويحذرهم من الحيف، أو المجاملة، أو الخروج عن حدود الله التي رسمها الله، أو سنة رسول الله التي لم يتركها؛ فقد كتب إلى أبي موسى الأشعري: (من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بن قيس: سلام الله عليك. أما بعد... آسِ بين الناس في وجهك، وعدلك، ومجلسك حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك).

وقد أوصى عمر الخليفة الذي سيأتى بعده: (أجعل الناس عندك سواء، لا تبالي على من وجب عليه الحق ثم لا تأخذك في الله لومة لأئم، إياك والإثرة والمحاباة فيما ولاك الله).

ولم يكن عمر ﷺ يفعل هذا أو يأمر ذاك إلا مترسمًا خطة النبي ﷺ الذي جاءه أسامة بن زيد، وكان محبوبًا عند رسول الله يشفع في فاطمة بنت الأسود المخدومية، وكان قد وجب عليها حد السرقة لسرقتها قطيفة وحليًا، فأنكر الرسول ﷺ على أسامة شفاعته قائلاً: (أتشفع في حد من حدود الله؟)، ثم قام صلوات الله عليه وسلامه خطيبًا في الناس فقال: (إنما

أهلك من قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت مُحَمَّد سرقت لقطعت يدها).

ولقد طبق عمر ﷺ هذا القانون مع عبد الله بن عمرو بن العاص، فقد كان بن عمرو يسابق أحد المصريين فسبقه المصري؛ فاغتاظ بن عمرو وضرب المصري الذي أقسم أنه لابد من أن يشكوه أمير المؤمنين، فرد عليه بن عمرو ما معناه أنك لن تفعل بشكواك شيئًا، فلن تثمر شكواك فأنا ابن الأكرمين، وفي زمن الحج ذهب المصري والتقى بعمر وهو سائر ومعه عمرو، وابنه وقدم شكواه، فظهر الغضب على وجه أمير المؤمنين واتجه إلى عمرو وقال: (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟، (ثم أعطى الدرة للمصري وأمره أن يضرب ابن عمرو قائلاً: (اضرب ابن الأكرمين).

والمساواة في الإسلام لم تكن وقفًا على الرعية، بل كانت مساواة بين الراعي والرعية في الحدود والحقوق والواجبات، لا فرق بين حاكم ومحكوم. ففي الإسلام يجوز للمحكوم أن يوجه النقد اللاذع إلى الحاكم إذا ما خرج عن الحدود المرسومة.

فقد شكى يهودي علياً بن أبي طالب إلى عمر بن الخطاب، ولما جلس عمر للقضاء بينهما خاطب اليهودي باسمه وخاطب علياً بكنيته – وقد كان الخطاب بالكنية دلالة على التعظيم– فظهر الغضب على وجه علي. فقال عمر لعلي: أكرهت أن يكون خصمك يهويًا؟ فرد علي قائلاً:

لم أكره ذلك، إنما كرهت أن لا تساوي بيني وبينه، فقد خاطبته باسمه وخاطبتني بكنيتي.

وتلك حادثة أخرى تبين أن عمر في مركزه كأمير للمؤمنين، وهيبته وشدته لم يمنع المسلمين من نقده؛ فبينما كان يخطب الناس سألهم: (ما رأيكم في أن أمير المؤمنين رأى فاحشة بين رجل وامرأة؟). فرد عليه علي بن أبي طالب قائلاً: على أمير المؤمنين أن يأتي بأربعة شهداء وإلا أقيم عليه حد القذف، ثم تلا قول الله تعالى:

(والَّذِينَ يَرْمُونَ المُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ولا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وأُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ) سورة النور آية ٤. فسكت عمر ولم يعين شخص المجرمين.

ولقد ساوى الإسلام بين الناس في كل شيء حتى في القتل، فقد قال الله في حق القتل العمد (النفس بالنفس) لا فرق بين أمير وحقير. وقال رسول الله ﷺ: (من قتل عبده قتلناه، ومن جدع عبده جدعناه، ومن أخصى عبده أخصيناه).

هذا موقف الإسلام الذي جاء دواءً ناجحًا لداء التفرقة، حرم على المسلمين احتقار الغير أو الإقلال من شأنه، قال الله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ ولا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ) سورة الحجرات آية ١١.

نعم.. إنها كانت منحة السماء إلى الأرض ورحمة الله بعباده، كانت إنقاذًا للبشرية من ربقة الذل، إنما كانت رسالة الله التي أخرج بها عباده من ظلمات الطبقات إلى نور المساواة، أظهرت للناس حقوقهم فلا سادة ولا عبيد، إنما كان الجميع أمام الله سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لقرشي على حبشي إلا بالتقوى.